(EISSN :2602-5434) -(ISSN:2437 -0231)

نبوغ علماء تلمسان في علوم اللسان
في القرنين السابع والثامن الهجريين

ExcellingScholars Tlemcen In Science Of Linguistic
In The Seventh And EighthHijra Centuries

د.بوسغادي حبيب

أستاذ محاضر(أ)

المركز الجامعي عين تموشنت

الجزائر

تاريخ الإرسال:21 /2019/01 تاريخ القَبول: 2019/09/22 تاريخ النّشر:2019/12/15

ملخّص:

لسنا نبالغ إذا قلنا أنّ حاضرة تلمسان كانت ولازالت من أكبر الحواضر التي احتضنت العلم والمعرفة منذ أن بدأ عصر الكتابة والتدوين لدى العرب والمسلمين؛ ومن يتصفح كتب التراجم والطبقات والتاريخ يجد هذه المقولة ماثلة أمامه؛ ولا ينكر هذا إلا جاحد.

وبحكم المكان الجغرافي الذي تميزت به هذه الحاضرة؛ كانت ومازالت قبلة العلماء والطلبة والمريدين؛ إن شمالا نحو الأندلس وأروبا، أو غربا نحو المغرب الأوسط، أو جنوبا نحو الصحراء الكبرى، أو شرقا نحو البلاد الشرقية.

هذا ما جعل العلم يشع منها إشعاعا؛ وعلماؤها لا يمكن عدهم عدا؛ أقول هذا الكلام مصداقا للآثار والأثافي والأطلال المتاخمة عبر حدودها هنا وهناك؛ والزوايا التي مازالت واقفة تنبئ كل زائر.

تنهض مداخلتنا على تبيان العلوم الأدبية واللغوية التي برع فيها علماء تلمسان في العهد الزياني؛ كما تسعى أيضا أن تميط اللثام عن مدى مساهمتهم في بناء صرح الفكر والثقافة في العالمين العربي والإسلامي، وإذ نبحر في هذا الموضوع نريد أن نعرف القارئ أن تلمسان الجزائر جزء لا يتجزأ من هذا العالم الذي كانت لها هي أيضا مشاركة طيلة قرون في هذه المسيرة المعرفية وفي شتى المجالات كأمثال يحي بن معطي الزواوي (-628هـ) وأحمد بن ادريس القرافي الصنهاجي (-684هـ) ومحمد بن أحمد بن مرزوق (-842هـ) وابن زكري

التلمساني (-900ه) وابن مرزوق الكفيف (- 901ه) وغيرهم في أقاليم الجزائر على غرار بجاية وبسكرة وتوات ومعسكر والأغواط....

وكتأكيد على أنّ الفنون النثرية والعلوم اللسانية التي تُدَرّسُ الآن في مدارسنا وجامعاتنا ما هي إلا امتداد لما تركه هؤلاء الأعلام.

وإنه لمن الوفاء بالسلف أن يقدم الخلف أجلّ تقدير واحترام لآبائهم الذين بدلوا الغالي والنفيس من أجل أن ينقلوا إليهم هذا التراث في شكله السليم بعد ضبطه وشرحه وتصحيحه وتحقيقه وتحشيته وطبعه

الكلمات المفتاحية: العلوم اللسانية ؛ أعلام تلمسان ؛ الفترة الزيانية ؛الفنون النثرية الشعر.

Abstract:

It is not an exaggeration to saythat the Tlemcen area One of the largest areas that have embraced science and knowledgesince the era of writing and bloggingamongArabs and Muslims. Thosewhoreviewhistory books and books of translations finditquite certain. This canonlybedenied by disbeliever or fanaticism.
Itsgeographical location played an important role in attractingscholars and students. It isnorthtowards Andalusia and europe, or westtowards the lowerMorocco, or southtowards the Great Sahara, or easttowards the eastern country.
This iswhat made the science radiateradiance; and itsscientistscan not count themexcept; I saythesewords as a confirmation of the effects and the enchantments and the adjacent ruinsacrossitsbordershere and there; and the Houses of worshipthat are still standing predicteachvisitor.
In this regard, wewish to inform the readerthat Tlemcen is an integral part of the Arab and Muslim world. Fromthis world, which has also been involved for centuries in thisprocess of knowledge and in various areas such as the likes of Yahya ibn MuutiZawaoui (-628 AH) and Ahmed ibn Idris QarafiSanhaji (-684 e) and Mohammed ibn Ahmed ibn Marzouk (-842 e) and Ibn ZakriTlemceni (- 900 e) and the son of Marzouk blind (- 901 e) and others in the provinces of Algeriaalong the lines: Bejaia, Biskra, Tawaat, Mascara and Laghouat.
And to emphasizethat the prose arts and linguistic sciences that are nowtaught in ourschools and universities are only an extension of whatTheseScholars.
It is the fulfillment of advancesthat the successorprovide a time of appreciation and respect for their parents who have exchangedprecious and generous in order to convey to themthisheritage in itsproperformafteritsregulation, and explanation, and correction, and realization, and refinement and printing.
It is the fulfillment of advancesthat the successorprovide a time of appreciation and respect for their parents who have exchangedprecious and generous in order to convey to themthisheritage in itsproperformafteritsregulation, and explanation, and correction, and realization, and refinement and printing

key words:
Linguistic sciences – Scholars of Tlemcen - Prose arts – poetry.

توطئـــــــة:

الحديث عن علماء تلمسان لا تفي هذه الورقة البحثية قدرهم؛ لأني وأنا أبحث وأفتش في بطون الكتب الخاصة بالسير والتراجم والطبقات التي تناولت وتحدثت عن علماء الجزائر؛ وجدت أنّ حصة الأسد أخذها علماء تلمسان عبر الاعصر المتعاقبة؛ حيث أنّ كل عصر أنجبت له تلمسان علماؤه ورجالاته؛ أمّا الكتب التي أحصيناها - وهي كثيرة جدا – فقد أكّدت ذلك؛ منها على سبيل المثال:

معجم أعلام الجزائر لعادل نويهض؛ و بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحي بن خلدون؛ والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون؛ وتاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان للتنسي؛ و معجم أعلام تلمسان لبن عيسى التيجيني؛ و موسوعة تراجم علماء الجزائر، علماء تلمسان وتوات لعبد الحق حميش ومحفوظ بوكراع؛ و في ببليوغرافيا تلمسان ليحي ولد سيدي أحمد، و أدباء وشعراء من تلمسان لبوزياني الدراجي؛ وتاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله؛ و تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك الميلي؛ ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني؛ وإرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر لمحمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان؛ و الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي؛ و شجرة النور الزَّكيَّة في طبقات المالكيَّة لمخلوف ابن محمد بن مخلوف؛ و فهرس الفهارس والأنساب ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات لعبد الحي الكتاني؛ وديوان العبر لابن خلدون؛ و العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية لعمار هلال؛ و أعلام الفكر الجزائري لمحمد بسكر؛ و صفة المؤرخين في إفريقية وتونس لمنير رويس؛ و تلمسان عاصمة المغرب الأوسط ليحي بوعزيز؛ و تلمسان في العهد الزياني لعبد العزيز فيلالي؛ و أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة ليحي بوعزيز؛ و منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية لعبد الكريم الفكون؛ و تلمسان في العهد الزياني لعبد العزيز فيلالي؛ ومدينة تلمسان عاصمة

المغرب الأوسط ليحي بوعزيز؛ والبستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان لابن مريم الشريف المليتي؛ وتعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم محمد الحفناوي؛ وموسوعة العلماء والأدباء الجزائريين: إعداد مجموعة من الأساتذة إشراف رابح خدوسي؛ والإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين الخطيب؛ وتاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن الجيلالي؛ وباقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان لمحمد رمضان شاوش؛ وكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي؛ ونيل الابتهاج بتطريز الديباج للتنبكتي؛ ودوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشاهير القرن العاشر لمحمد الحسني؛ وهدية العارفين في أسماء وآثار المصنفين من كشف الظنون لاسماعيل باشا البغدادي؛ والنبوغ المغربي لعبد الله كنون؛ والتراث الجزائري المخطوط: مخطار حساني؛ ودرة الحجال لأحمد بن عافية.....وهلم جرا.

1/ التعريف بعلوم اللسان، وبمدينة تلمسان:

أ/ تعريف علوم اللسان:

شاع استخدام مصطلح اللسان في تراثنا القديم، وهو ما نجده ماثلا في كتابات القدامى فقد عقد الفارابي(ت350ه) فصلا وسماه في علم اللسان في كتابه إحصاء العلوم حينما قال:" علم اللسان ضربان: أحدهما: حفظ الألفاظ الدالة عند أمة ما، وهو علم يدل عليه شيء منها، وثانيهما علم قوانين تلك الألفاظ"(1)

وذكره ابن سيده (ت458ه) في مقدمة معجمه المخصص، فقال:" إن علم اللسان يقوم على أمرين أولهما: الإحاطة بمفردات اللغة ومعفة دلالتها، وثانيهما: معرفة قواعد اللغة التي تتعلق بالمفردات من قبيل اشتقاقها وصيغة بنائها وما يطرأ على بنيتها من تطورات صوتية أو تغييرات تقتضيها قوانين اللغة المعينة"(2)

أمّا ابن خلدون فقد عقد في مقدمته فصلا بعنوان: (في علوم اللسان)، وقال بأنّ " أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب؛ أمّا علم النحو فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم وكانت الملكة

الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور أعني المضاف ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب، وعلم اللغة فهو العلم ببيان الموضوعات اللغوية وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه، أما علم البيان فهذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة، وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني، أما علم الادب فهذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية...وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي"(3)

وهذا الحقل المعرفي لقي تجاوبا منقطع النظير من طرف ملوك وسلاطين أنذاك، فأولوا عناية كبيرة للأدباء والشعراء واللغويين، يقول حاجيات: "كانت العلوم اللسانية تحظى بإقبال كبير وخاصة من طرف الكتّاب والشعراء، واهتم علماء الدين أيضا باللغة لما لها اتصال وثيق بعلمي القرآن والحديث، وقد برع في هذه العلوم كثير من الشعراء والكتاب (4)"

ب/ التعريف بمدينة تلمسان:

ارتأينا أن نقدم بين يدي هذه الورقة البحثية تعريفا موجزا لمدينة تلمسان، وحتى يتسنى لنا أن نعرف القارئ بهذه الحاضرة التي بلغ شأنها وأفقها العلمي والمعرفي الآفاق، فهي" قاعدة المغرب الأوسط وحد المغرب الأوسط من واد يسمى مجمع وهو في نصف الطريق من مدينة

مليانة إلى أول بلاد تازا من بلاد المغرب"(5)؛ وورد في كتاب بغية الرواد بأنهم " قوم من البربر بالمغرب على اليقين والدين الصحيح إلى يوم الدين ودار ملكهم في وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسان، كلمة مركبة من (تلم) ومعناه تجمع و(سان) معناه اثنان أي الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا أبو عبد الله الآبلي رحمه الله وكان عارفا بلسان القوم ويقال فيها أيضا (تلشان) وهو أيضا مركب من (تل) ومعناه (بال) و(شان) أي لها شأن عظيم، وهي مدينة عريقة في التمدن لذيذة الهواء عذبة الماء كريمة المنبت اقتعدت بسفح الجبل ودون رأسه بسيط أطول من شرق إلى غرب عروسا فوق منصة، والشماريخ مشرقة عليها إشراق التاج على الجبين تطل منه على فحص أفيح معد للفلاحة....[إلى أن يقول] فهي التي سحرت الألباب رياء واصابت النهى ووجد المادحون فيها المقال فمن ذلك قول شاعرها الشيخ الصوفي الأعرف أبي عبد الله محمد بن عمر بن خميس رحمه الله تعالى:

تلمسان جادتك السحاب الدوالح وأرست بواديك الرياح اللواقــح
وسح على ساحات باب جيادهـا ملث يصافي تربها ويصـــــافح
يطير فؤادي كلما لاح لامـــــع وينهل دمعي كلما ناح صـــادح
ففي كل شفر من جفوني ماتح وفي كل شطر من فؤادي قادح(6)

ويقول في موضع آخر:

سقى الله من صوب الحيا هاطلا وبْلا ربوع تلمسان التي قدرها استعلى
ربوع بها كان الشباب مصاحـــبي جررت إلى اللذات في دارها الذيلا
فكم نلت فيها من أمان قصيـــة وكم منح الدهر المنيف بها النيلا
وكم غازلتني الغيد فيها تلاعبـــا وكل عذول لا أطيع له قـــولا(7)

ويضيف الأستاذ حاجيات أن هذه المدينة" تغذت بالثقافة الإسلامية منذ عصر الفتوح، فتأثرت بمختلف التيارات الفكرية التي طبعت المجتمع الإسلامي بطابعها ونما في أهلها التشبث بالإسلام وتعاليمه واحترام العلماء وتبجيلهم، وقد ظهر فيها كثير من رجال العلم والصلاح، من أشهرهم ابن نصر الداودي (ت402هـ)، وأبو الفنون (ت557هـ)، وابن الأشيري (ت569هـ) وأبي مدين شعيب (ت594هـ)، وابن سليمان اليعفري (ت625هـ)"(8)

بل إنّ كثيرا من المشارقة من أشاد بعلماء تلمسان وبعلمهم، وأنهم يضاهون أقرانهم من علماء المشرق؛ على غرار ما ذكره صاحب كتاب (معجم الأصوليين) الذي قام بترجمة كل عالم توفرت فيه شروط ومعايير الاجتهاد من الجانب الاصولي، فكان من علماء تلمسان الذين ذكرهم الآتي:

أحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني(ت899ه)، فقيه مالكي أصولي بياني من أهل تلمسان...قال مخلوف في وصفه: الإمام العالم المتفنن الهمام الفروعي الأصولي النظار الشاعر المفلق"، وقال الحجوي فيه: علامة تلمسان ومفتيها وحافظها المتفنن الأصولي الفروعي المفسر"(9)

وأحمد بن يحي أبو العباس الونشريسي التلمساني ثم الفاسي(ت914ه)، فقيه مالكي أخذ عن علماء تلمسان، قال فيه مخلوف: الإمام العالم العلامة العمدة المحصل الفهامة المحقق، حامل لواء المذهب"(10)

وعبد الله بن محمد بن علي ابن التلمساني (ت644ه)، فقيه شافعي أصولي أصله من تلمسان، قال عنه الإسنوي: كان إماما في الفقه والأصلين ذكيا فصيحا حسن التعبير له مصنفات حسنة مفيدة"(11)

ومحمد بن أحمد بن علي الإدريسي الحسني المعروف بالشريف التلمساني: علامة باحث من أعلام المالكية انتهت إليه إمامتهم بالمغرب، كان من قرية تسمى العلوين...أخذ عنه خلق كثير منهم: ابن خلدون والشاطبي، وصفه الشيخ مخلوف قائلا: العلامة فارس المعقول والمنقول الفهامة المحقق العمدة الحافظ، كان من أعلام العلماء والائمة الفضلاء أعلم من في عصره بالإجماع، كان الأستاذ ابن لب يعترف بفضله ويراجعه في المسائل، اجتمع بابن عبد السلام بمجلس درسه وعارضه في مسألة كان الحق فيها فيما ظهر له فاعترف بفضله"(12)

وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التُّجِيبيالمرسي محدث تلمسان...قال فيه ابن الأبار: كان عدلا خيّرا حافظا للحديث ضابطا"(13)

3/ التعليم والمؤسسات التعليمية في عهد بني زيان:

أثناء قيام الدولة الزيانية راحت تؤسس لمراكز التعليم بصفتها القوة الأولى التي يمكن بها محاربة الجهل ومن ثمّ بناء الحضارة التي تصبو إليها كل أمّة وبالفعل في عهد ها " أسست مدارس تلمسان الخمس، فكانت معاهد عليا للتعليم ولتكوين الإطارات السامية في شتى المجالات على غرار المدارس النظامية التي أنشئت في المشرق وما تمّ تشييده بعدها في سائر أنحاء العالم الإسلامي

وأول مدرسة أسست بتلمسان هي التي أمر ببنائها أبو حمو موسى الأول (707هـ-718هـ)، ثم بنى ابنه أبو تاشفين الأول (718هـ-737هـ) المدرسة التاشفينية بجانب الجامع الأعظم،ثم شيدت أيام استيلاء المرينيين على المغرب الأوسط مدرسة بقرية العباد خارج تلمسان أمر ببنائها السلطان أبو الحسن المريني سنة (748هـ)، كما أنشأ ابنه أبو عنان مدرسة أخرى بجانب ضريح ومسجد الولي الصالح أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي الملقب بالحلوي سنة (754هـ)

أما المدرسة الخامسة فهي المدرسة اليعقوبية أسسها أبو حمو موسى الثاني (760هـ-791هـ) سنة (765هـ)...وكان أولو الامر يولون هذه المدارس عناية خاصة ويجرون الأرزاق والمنح للأساتذة والطلبة والموظفين بها ويعهدون بالتدريس فيها لأشهر العلماء..وامتازت طريقة التعليم بتلمسان باعتمادها بالدرجة الأولى على البحث والتفكير وعدم الاكتفاء بالحفظ فكان لذلك أثر محمود في تشحيذ الأذهان وتكوين أجيال صالحة من كبار العلماء الذين ساهموا مساهمة كبرى في تقدم الحركة العلمية الإسلامية في عصرهم في شتى المجالات"(14)

4/ دور الرحلة في تلقي العلم والمعرفة:

مشاركة علماء تلمسان أقرانهم من العلماء المشارقة والمغاربة والأندلسيين على حد سواء، ولم يكونوا خارج نطاق الركب الحضاري والثقافي الذي كانت تتميز به كل أمة، بل هم أيضا شاركوا في نشر الحركة العلمية في العديد من الحواضر المغربية والمشرقية، فكانوا

يهاجرون من تلمسان نحو مدن المشرق أو مدن المغرب، ويأخذون من علمائها، وفي نفس الوقت يمنحون ما عندهم لطلاب المناطق ويعود معظمهم بعلم وافر لتلمسان (15)

وفي هذا الصدد يقول بشير ضيف:" إنّ للجزائريين تراث ضخم ومتنوع فقد كانت رحلة الجزائريين إلى شتى البقاع الإسلامية سببا في توزعه عبر مراكز المخطوطات كالمغرب وتونس ومصر وتركيا والشام"(16)

ومن أبرز العلماء الذين ارتحلوا إلى المشرق وأفادوا بعلومهم أهلها واستقروا فيها:

أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني التلمساني، رحل إلى المشرق قبل سنة (739هـ)

ويحي بن عبد الرحمن الزرمانيالعجيسي الذي برع في علوم شتى والتي أخذها تلقينا عن شيوخ العرب كابن عرفة وابن خليفة، ورحل إلى القاهرة سنة (804هـ) واستقر بها إلى أن وافته المنية سنة (862هـ)

وشهاب الدين الندرومي التلمساني فقيه ومقرئ وعالم بالمنطق، رحل إلى القاهرة وتصدر للإقراء بها.

وإبراهيم بن محمد البجائي المعروف بالمصعصع فقيه مالكي نشأ وتعلم ببجاية، رحل إلى المشرق وسكن بالمدينة المنورة مدة ثم انتقل إلى مكة واقام بها إلى أن مات سنة (882هـ)

ومحمد بن مرزوق الحفيد (ت842هـ) كان له فضل الإقراء من المغرب إلى الديار المصرية.

وأبو عبد الله محمد النجار (ت750هـ) من أهل تلمسان أخذ العلم عن مشايخ بلده ثم ارتحل إلى المغرب فأخذ عن ابن البناء ثم رجع إلى تلمسان بعلم كثير.

ويحي بن رحمون العُلَمِي (ت888هـ) نزيل القاهرة ثم مكة

وأحمد بن سعيد بن عباس التلمساني (ت874هـ) فقيه مالكي ولي القضاء وله مشاركة في علم العربية، نشأ وتعلم بتلمسان، ورحل إلى المشرق وولي قضاء الإسكندرية فدمشق.

وإبراهيم بن يخلف التنسي فقيه انتهت إليه رياسة التدريس والفتوى في أقطار المغرب، وقرأ بتونس، ثم رحل إلى المشرق فزار مصر والشام والحجاز، وأخذ العلم عن الأصبهاني والقرافي والسيف الحنفي، ثم عاد واستقر بتلمسان وتوفي بها سنة (670هـ) (17)

5/ علماء تلمسان المشاركين في حقل علوم اللسان:

شهد عصر الدولة الزيانية تطورا ملحوظا في كثير من الأصعدة، وعلى رأسها الحركة العلمية الثقافية، كانتشار المراكز التعليمية وبروز ثلة من العلماء الذين ساهموا في تطوير العلوم دراسة وتدريسا وتأليفا، ومن ثمّ اعتبر هذا العصر بحق عصر الثورة العلمية في صنوف شتى من المعارف على غرار العلوم الدينية والعقيدة والتفسير والمنطق والفلسفة واللغة والأدب والفلك والطب والجبر والهندسة، وهو ما تجلى حقيقة من خلال المصنفات المخطوطة المبثوثة في خزائن دول العالم، وهذه العلوم" كانت تشكل المحتوى الفعلي للحركة العلمية وكانت تختلف من مكان إلى آخر ومن فترة إلى أخرى، حسب الأهمية وحسب ما توفر من علماء لتدريس تلك المواد كما كانت للرحلة العلمية دور كبير في التطلع والاستفادة من العلوم وذلك بالاحتكاك مع علماء المشرق والمغرب، وأيضا نزوح مسلمي الأندلس بسبب الحصار، فحملوا معهم من العلوم والمهارات التي اكتسبوها هناك، وتشجيع السلاطين الزيانيين للعلم ومحبتهم للعلماء وإكرامهم كان محفزا لحركة التأليف"(18)

أمّا تلمسان فمنذ تأسيسها كانت قبلة للدارسين وملتحدا لطلاب العلم والفن، وما من أحد يستطيع الآن أن يحصي تاريخها أو يعد علماءها الذين وطئت أقدامهم الطاهرة ثراها وتنقلوا بين ربوعها ورباها وأبوابها ورياضها، وأقاموا حقبا بين أهلها أو مروا عليها في طريقهم إلى حواضر العلم مشرقا ومغربا، فمنهم من درس بمدارسها ومنهم من خطب أو حاضر بمساجدها.

ظلت تلمسان على مر العصور قلعة للثقافة العربية الأصيلة وحقلا خصبا للإبداع بعامة والأدب بخاصة، وحين نذكر هذه المدينة يتبادر إلى الذهن أسماء أعلام سجلوا أنفسهم في قراطيس التاريخ الأدبي من أمثال ابن أبي حجلة، ابن الخميس، الشيخ السنوسي، سيدي بومدين، يحي ابن خلدون، ابن يخلف المصمودي.

وتلمسان منبت العظماء ومرقد العلماء في العربية الفصحى والشعبية، التي انتحى بها الكثير منهم في مختلف الأغراض والفنون؛ وقد حظيت الدراسات اللسانية وعلوم اللغة وما تفرع

منها بقسط وافر من الكتابة والتأليف لدى العلماء وطلبة العلم بالمغرب الأوسط في عهد الزيانيين، حيث نبغ في هذه الفترة الكثير من العلماء ذوي تخصصات مختلفة على غرار النحو واللغة والأدب والشعر.

ومن العلماء الذين يمكن أن يشار إليهم على سبيل المثال مايلي:

1/ محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقي المرسي (ت686هـ)

هذا العالم نزل تلمسان وعُرِف ببراعته في مجال الخط والأدب والشعر(19)، حتى قال في حقه عبد الله التنسي:" بوفاته انقرض علم الكتابة"(20)، برع في كثير من العلوم على غرار الأدب والحديث والفقه وعلم الأصول، مؤداه في ذلك أنه تتلمذ على كثير من الشيوخ في عصره(21)، استقر مقامه بتلمسان وعُيّن كاتبا لأبي يحي يغمراسن بن زيان، إلى أن توفي عام (686هـ)(22)، له أشعار كثيرة منها:

مَدْحُهُ للشاعر ابن خميس التلمساني الذي قال فيه:

رقت حواشي طبعك ابن خميس فهفا قريضك بي وَهَاجَ رسيسي

ولمثله يصبو الحليم ويمتـــــري ما للشروق به وسير العيـــس

لك في البلاغة والبلاغة بعـــض ما تحويه من أثر محل رييسي

نظْمٌ ونثرٌ لا تُبارى فيهـــــــما تمهدت ذاك وذا بعلم الطّوسي(23)

2/ ابراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى، أبو أسحاق الأنصاري التلمساني (ت690هـ)

شاعر، أديب، من فقهاء المالكية، ولد بتلمسان عام (609هـ)، كان كثير التنقل بين المدن الأندلسية، والمغربية، قرأ على الكثير من العلماء على غرار أبي بكر بن دحمان ومحمد الزاهد وابن الحفيد وابن محرز وأبو الحسن الشلوبيني ويوسف بن موسى الغماري، قال فيه ابن الزبير: كان أديبا لغويا فاضلا إماما في الفرائض (24)؛ له أرجوزات عديدة في علم الفرائض وفي مدح الرسول الكريم(25)

ومن شعره فيما يمدح أبي القاسم العزفي:

أرأيت من رحلوا وزمّوا العيسا ولا نزلوا على الطلول حسيسا

أحسبت سوف يعود نسف ترابها يوما بما يشفى لديك نسيسا

هل من مؤنس نارا بجانب طورها لأنيسها أم هل تحس حسيسا(26)

3/ محمد بن منصور بن علي بن هدية التلمساني (ت 735هـ)

نشأ وترعرع بتلمسان وتولى عدة وظائف على رأسها القضاء مع كتابة السر للسلطان أبي تاشفين الأول(27)، كان ابن هدية من أئمة اللسان والأدب ذو بصر بالوثائق وكتب الرسائل عند الملوك الأوائل من بني يغمراسن بن زيان(28)؛ نظم شعرا كثيرا ، منه:

وفي الحلّة الحمراء حمراء لو بـــدت لِثَكْلَى لولّى ثُكْلُها وثبــورهـــــــــا

فما يستوي مثوًى لها مَنْ سوى القنا خيام، ومن بيض الصفاح ستورها

وما يسوى صدق الغرام أرومهـــــــا ولا يسوى زَوْرُ الخيال أزورها(29)

4/ أبو الحسن علي بن محمد الخزاعي التلمساني (ت789هـ)

هذا العالم ولد بتلمسان وبها نشأ وحصل على مبادئ العلوم والأدب وبرز في الفقه والحساب والتاريخ، أخذ العلم عن شيوخ كُثُر أبرزهم: البلفيقي وابن مرزوق الخطيب؛ من آثاره : كتاب (تخريج الدلالات السمعية)(30)

5/ **ابن خميس التلمساني.. شاعر كبير ملم بالأدب واللغة وأصول الفقه**

هو الشاعر أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر الحميري الحجري المعروف بابن خميس التلمساني، أصله من اليمن، ولد بتلمسان سنة 645هـ وقيل سنة 650هـ نشأ بتلمسان ودرس على علمائها، وعرف عنه حبه للعزلة، التقى في تلمسان الرحالة المغاربي العبدري عام 688هـ فأخرجه من عزلته وولاه السلطان أبو سعيد يغمراسن ديوان الإنشاء وأمانة سره.

نشأ بتلمسان وكان عارفا بفنون الأدب والفلسفة والحكمة والنجاعة والسيمياء، مؤرخا مطلعا على أخبار الأمم والفرق والطوائف على اختلاف حللها ونحلها، كاتبا بليغا وشاعرا، وكان لغزارة علمه يوصف بين أهل العلم بشيخ الأدباء، وعرف بشاعر المائة السابعة(31)، قال عنه العبدري في رحلته:" ما رأيت بتلمسان من ينتمي إلى العلم ولا من يتعلق منه بسبب

سوى صاحبنا ابن خميس وهو فتي السن، وله عناية بالعلم وحظ وافر من الأدب وطبع فاضل في قرض الشعر"(32)

هذا العالم الجليل يعتبر من الشعراء المطبوعين، حيث فاق شعراء عصره وبزّهم في قول النظم، حتى ذاع صيته في الآفاق، ترك ديوانا من الشعر مازال مفقودا إلى يومنا هذا(33)

كان حب ابن خميس لوطنه تلمسان كبيرا جدا وبرز كثيرا في شعره حتى أنه خصص قصيدة في مدحها ووصف معالمها(34)، يقول في مطلعها:

تلمسان جادتك السحاب الدوالح وأرست بواديك الرياح اللواقح

وسح على ساحات باب جيادها ملت يصافي تربها ويصـــــافح

يطير فؤادي كلما لاح لامـــــع وينهل دمعي كلما ناح صادح(35)

6/ يحي بن خلدون (734هـ - 780هـ)

هو أبو زكرياء يحي بن محمد بن خلدون، شقيق عبد الرحمن بن خلدون، ولد بتونس، ونشأ بها وتلقى العلم على يد علمائها مثل الحضرمي والآبلي والسطي والزواوي أبو منصور وغيرهم

كانت نشأته العلمية تتميز بطابع الجد والعناية الكبيرة بالعلوم الدينية، والتفتح إلى الأدب والشعر، الأمر الذي جعله يرتقي إلى طبقة المبرزين؛ نظم قصائد عديدة في مدح أبي حمو الثاني وفي المناسبات الدينية،(36) منها القصيدة التي قالها في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف سنة (764هـ) مطلعها:

قراءات لها أعلام نجد فحياها نسيم سرى من حاجر ورباها

ولاح لها البرق اليماني فانبرت تمد حثيثا للعذيب خطاها(37)

7/ محمد بن يوسف القيسي التلمساني المعروف بالثغري

هو من أشهر شعراء تلمسان الزيانية وبلغائها المبرزين، ولد بتلمسان وتلقى تعليمه بها على كثير فقهائها، مدحه كثير من أقرانه على غرار المازوني في نوازله، والمقري في أزهاره، نبغ في فنون الأدب فنظم القصائد الغراء(38)

وكان مما ألقاه في مدح تلمسان وسلطانها أبي حمو موسى الثاني مطلعها:

تاهت تلمسان بحسن شبابها وبدا طراز الحسن من جلبابها
فالبِشْرُ يبدو من حباب ثغورها متبسما أو من ثغور حبابها
حَسُنْتِ بحسن ملكها المولى أبي حمو الذي يحمي حمى أربابها(39)

ومن النظم الذي خطّتْهُ يداه قصيدة يحذر من الدنيا يقول في مطلعها:

أَقْصِر فإن نذير الشيب وافاني وأنكرتني الغواني بعد عرفـــاني
وقد تماديت في غي بلا رشـــــــد والنفس تأمرني والشيب ينهاني
كم من خِطى في الخطايا قد خطوت ولم تراقبني الله في السر وإعلان
فلا تغرّنّك الدنيا بزخرفهـــــــا فيا ندامة من يغترّ بالفـاني(40)

8/ محمد بن محمد بن أبي القاسم المشدالي (ت864هـ)

نشأ المشدالي شغوفا بالعلم والحكمة والأدب، قال عنه الجلال السيوطي:" هو أحد أذكياء العالم، اشتغل بالمغرب وقدم في حياة والده، وأقرأ بمصر وغيرها وأبان عن تفنن في العلوم فقها وأصولا وكلاما ونحوا وغير ذلك، وأخذ عنه طلبة العصر.. وقال في موضع آخر: اشتغل في الفنون على والده ومشايخ بلده في أنواع العلوم العقلية والنقلية واتسعت معارفه وبرز على أقرانه بل على مشايخه وشاع ذكره وملأ الأسماع وصار كلمة إجماع، كان أعجوبة الزمان في الحفظ والذكاء والفهم وتوقد الذهن"(41)

ومن العلماء الذين تتلمذ على أيديهم : (الشيخ ابن مرزوق الحفيد) و(الشيخ ابن سعيد العقباني) و(الشيخ أبي العباس زاغو)، فكان أن تحصل على الخير الكثير، توفي سنة (864هـ)(42)

أقرأ تلاميذا كثر أبرزهم: أحمد بن زكري بتلمسان (مفتي الديار الزيانية)، ابن قاضي عجلون بالشام، وبالقدس الكمال ابن أبي الشريف، وبالقاهرة الشهاب البيجوري(43)

ومن شعره:

برق الفراق بدا بأفق بعـــادنا فتضعضعت أركاننا لرعوده
كيف القرار وقد تبدد شملنا والبين شق قلوبنا بعموده

لله أيام مضت بسبيـــــــلها والدهر ينظم شملنا بعقوده(44)

9/ محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي:

من أكابر علماء تلمسان، مؤرخ وأديب وشاعر، ولد بمدينة تنس ونشأ وتعلم بتلمسان، وصفه أحمد بن داود ببقية الحفاظ وقدوة الأدباء العالم الجليل...ونعته التنبكتي بنعوت مختلفة بأنه فقيه وجليل وحافظ وأديب والمطلع ووصفه الونشريسي بالفقيه الحافظ والأديب الشاعر(45)

له تآليف كثيرة منها: نظم الدرر والعقبان في دولة آل زيان- وكتاب الطراز في شرح ضبط الخراز وكتاب الجواب المطول في قضية يهود توات(46)

10/ أبو العباس أحمد بن علي المليانى:

هذا العالم ذكره لسان الدين الخطيب في الإحاطة فقال عنه:" صاحب العلاَمَة بالمغرب الكاتب الشهير البعيد الشأن في اقتضاء الثره، المثل المضروب في العفة وقوة الصرامة ونفاذ العزيمة، أخذ بحظ من الطب وحسن الخط، مليح الكتابة، قارضا للشعر.."(47)

11/ أحمد بن محمد المعروف بابن الحاج البيدري التلمساني:

هذا العالم تعلم الأصول والمنطق والبيان والمعاني والعربية على يد جلة من علماء تلمسان، حيث ضرب في كل علم وفن بسهم(48)

12/ أبو عبد الله محمد بن منصور القرشي التلمساني

من نسل عقبة بن نافع الفهري كان فقيها أديبا كاتبا ذا بصر بالوثائق، حيث أنشأ ديوان الرسائل بتلمسان في عهد أبي حمو الأول، وألّف كتبا قيمة في الأدب والتاريخ منها مثلا: (شرح على قصيدة ابن خميس، وتاريخ تلمسان) كما عين قاضيا بتلمسان، توفي سنة (735هـ).(49)

13/ أبو عبد الله محمد بن البناء التلمساني

كان فقيها أديبا شاعرا ظريفا ذكر له صاحب كتاب بغية الرواد موشحة مطلعها:

من اطلع فوق مائس الريحان بدر الأفـــــق

يهتز منعما على كثبـــــــان تحت الغسق(50)

14/ أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي

من أهل تلمسان كان طبيب السلطان أبي حمو الثاني وشاعرا بارزا من شعراء بلاطه، نظم الكثير من القصائد في مدحه، كما كانت لديه إجادة التوشيح، ومن الموشحات التي نظمها مطلعها:

لي مدمع متـــــان ينهل مثل الدرر

قد صير الأجفان ما إن لها من أثر(51)

15/ محمد بن علي بن أبي بكر الصنهاجي (ت628هـ)

مؤرخ وشاعر وأديب له مشاركات في علوم اللغة والفقه والحديث... دخل الأندلس فسمع بها وولي القضاء في الجزيرة الخضراء، ثم استوطن مراكش إلى أن توفي بها، له آثار كثيرة منها: شرح مقصورة ابن دريد، وديوان شعر، وكتاب في الأدب عنوانه عجالة المودع وعلالة المشيع(52)

خاتمة:

إنّ المتتبع لجهود علماء تلمسان يدرك حقيقة فحواها أنّ هذه الحاضرة كانت ولازالت بحق معلما بارزا لا يقل مضاهاة بأقرانهم المغاربة والمشارقة والأندلسيين، فالمطلع على ما جادت به كتب السير والتراجم والطبقات على مر العصور، يجد جيشا من العلماء العرافاء والأمناء من أهل تلمسان يحملون لواء العلم والمعرفة كلّ والتخصص الذي برع فيه؛ ويعتبر حقل العلوم اللسانية من الحقول المعرفية التي برعوا فيها وضربوا فيها بسهم، شعرا ولغة ونحوا وصرفا وأدبا وبلاغة .... وهلم جرا.

يعتبر العهد الزياني من العهود التي نشطت فيها الحركة العلمية في منطقة تلمسان، مؤدى ذلك التحفيز الذي لقيه العلماء من طرف الملوك والسلاطين، ورعايتهم لمختلف العلوم، وهي ميزة جعلتهم يشجعون الفقهاء والأدباء، كيف لا وجل سلاطين الدولة كانوا هم أنفسهم إما فقهاء أو أدباء أوشعراء.

انتقال الدارسين التلمسانيين لطلب العلم والاستزادة منه ولقاء كبار الشيوخ المشهورين لأن الرحلة في طلب العلم كانت من المسائل المحمودة فكانوا لا يكلون عن السعي في سبيل الدرس ولتحصيل وتبادل الآراء في مختلف العلوم، ومد جسور العلم والثقافة عبر الأجيال.

علماء تلمسان كغيرهم من علماء الأمة العربية الإسلامية تركوا بصمة في تاريخ الحضارة والعلم؛ يشهد لذلك منجزاتهم ومؤلفاتهم المطبوعة منها والمخطوطة.

الرحلات التي كان يقوم بها علماء تلمسان بين المغرب والأندلس والمشرق الإسلامي جعلت منهم أوتادا لهم كلمتهم في حقل العلم والمعرفة والقضاء والافتاء؛ هذا ما انجر عنه ازدهار حلقات العلم والجدل والمناظرات، وأنجبت تلمسان عددا لابأس به من العلماء في العلوم الدينية واللسانية والاجتماعية والطبيعية، كما ساهمت هذه الرحلات أيضا في التأسيس لمرحلة جديدة في المغرب الأوسط.

لا يمكن لورقة بحثية أن تفي الغرض، وحسبنا أننا أشرنا ولو بالشيء القليل إلى هذه المنطقة وأعلامها الأقحاح الذين برعوا في ميدان العلوم اللسانية.

****

الهوامـــش:

1/ الفارابي: إحصاء العلوم، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط1، 1991، ص9

2/ علي بن إسماعيل ابن سيده: المخصص، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، مقدمة المعجم.

3/ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: المقدمة، تح عبد الواحد علي وافي، ط7، دار النهضة، مصر، 2014، ص1128-1140 (بتصرف).

4/ عبد الحميد حاجيات: الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، العدد 26، ص149

5/ محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر الثقافة، بيروت، 1980، ص135.

6/ أبي زكريا يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ط1، مط بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1903، ص9-11

7/ المصدر نفسه، ص17.

8/ عبد الحميد حاجيات: الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، ص137.

9/ أبو الطيب مولود السريري: معجم الأصوليين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص124-125.

10/ أبو الطيب مولود السريري: المرجع السابق، ص132-133.

11/ أبو الطيب مولود السريريك المرجع السابق، ص307.

12/ أبو الطيب مولود السريريك المرجع السابق، ص421-422.

13/ أبي عبد الله محمد بن أحمد الصالحي: طبقات علماء الحديث، تح أكرم البوشي وإبراهيم الزيبق، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996، 174/4.

14/ عبد الحميد حاجيات: الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، العدد 26، ص137-139.

15/ ينظر: عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني، جامعة النجاح الوطنية، ماجستير بقسم التاريخ، فلسطين، ص237-239

16/ بشير ضيف: معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، الجزائر، 2002، 118/1.

17/ ينظر: شفاء علي الفقيه: أثر جهود علماء الحديث النبوي في تلمسان على المشرق الإسلامي، مجلة الفضاء المغاربي، جامعة تلمسان، المجلد 22، العدد 02، ص22-24.

18/ سعاد حطاب: العلوم العقلية والنقلية في المغرب الأوسط – العهد الزيانيأنموذجا-، مجلة الآكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد18، جوان 2017، ص127

19/ ابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م، ص227

20/ أبو عبد الله محمد بن عبد الله التنسي: نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، ص128

21/ ينظر : لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تح محمد عبد الله عنان، ط1، القاهرة، 426/2.

22/ أبو زكرياء يحي بن أبي بكر محمد: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح ألفريد بال، ط1، مطبعة بيير فونطانا الشرفية، الجزائر، 1903، ص129.

23/ الأبيات ذكرها ابن الخطيب في الإحاطة، 430/2.

24/ ينظر: يحي بن خلدون، المرجع السابق، ص109.

25/ ينظر: بغية الرواد، 409/1، والإحاطة 326/1، ومعجم أعلام الجزائر لعادل نويهض، ط2، 1980، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ص63.

26/ الإحاطة في أخبار غرناطة، 336/1

27/ ينظر: المقري أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 234/5.

28/ ينظر: كتاب البستان، ص225

29/ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 235/5.

30/ ينظر: عبدالرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، منشورات دار الحياة، بيروت، 113/2 وما بعدها

31/ بودواية مبخوت: العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، أطروحة دكتوراه، جامعة تلمسان، 2006/2005، ص139

32/ الرحلة المغربية: محمد العبدريالبلنسي، تقديم سعد بوفلاقة، ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر،2007، ص11

33/ ينظر: يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 2007، 123/1.

34/ ينظر: هؤلاء أبرز علماء تلمسان عبر العصور، حنان حملاوي، 13 يوليو 2015.

35/ بغية الرواد، 36/1

36/ بودواية مبخوت: العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، 153-154 (بتصرف)

37/ حاجيات عبد الحميد: أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، ط2، شونت، الجزائر، 1982، ص177.

38/ بودواية مبخوت: العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، 155-156 (بتصرف)

39/ نفح الطيب، 262/4.

40/ يحي بن خلدون: المرجع السابق، ص425/2.

41/ أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية عبد الحميد الهرامة، ط2، دار الكاتب، طرابلس، 2000، ص541-542.

42/ أحمد بابا التنبكتي، المرجع السابق، ص531.

43/ بودواية مبخوت: العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، 156 (بتصرف)

44/ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط2، منشورات دار الحياة، بيروت، 1965، 279/2.

45/ بودواية مبخوت: العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، ص163-164 (بتصرف)

46/ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: ابن مريم الشريف المليتي التلمساني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص294

47/ لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تح عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973م، 1/284-286 (بتصرف)

48/ عبد الحميد حاجيات ضمن بحث موسوم الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان منشور في مجلة الأصالة، العدد 26، ص149-150.

49/ عبد الحميد حاجيات، المرجع نفسه، ص149

50/ عبد الحميد حاجيات، المرجع نفسه، ص150

51/ عبد الحميد حاجيات، المرجع نفسه، ص150

52/ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1980، ص197